الفصل الثاني
الأقلية على مستوى العقيدة

● **توطئـة :**

النص المحوري الذي يكشف عن طبيعة العقيدة عند الأقلية هو قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ [هود : ٤٠] فالأقلية كما تتجلى من هذا النص المحوري والنصوص الآتية تمثل المؤمنين في مقابل الأكثرية التي رأينا أنها مثلت الكافرين على اختلاف ألوانهم وأشكالهم من ملحدين وضالين ومغضوب عليهم، وعبدة الأوثان من المشركين وما إلى ذلك، والحق أن هذه النصوص تكشف عن تنوع درجات المؤمنين، فهم درجات تبعا لمكانتهم من العمل بأركان الإيمان والعمل الصالح، والنصوص هي قوله تعالى : ﴿ **قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ [هود : ٣٧ – ٤٠]. وقوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾[ص : ٢٤] . وقوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [البقرة : ٨٨]، ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [الحجر : ٣٩–٤٠].

هذه النصوص بدلالاتها المختلفة تقتضي أن تتجه المعالجة في موضوع الأقلية من جهة العقيدة نحو ثلاثة جوانب هي : الإيمان والشكر والإخلاص، وسنخصص لكل جانب مبحثا بإذن الله.

* * *

● المبحث الأول : الإيمان

يقع الإيمان في العقيدة الإسلامية في مقابل الكفر العقدي، وقد حددت عناصره الأساسية آية البر من قوله تعالى ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ...** ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقوله تعالى: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ** ﴾ [البقرة : ٢٨٥]

ومن الواضح أن تحديد عناصر الإيمان مهم جدا في تحديد السبب الجوهري في كون المؤمنين حقا يشكلون الأقلية، وقد ساعدنا في بيان ذلك نصان :

الأول : قول الله تعالى في الآية السابقة تعقيبا على أحد العناصر الخمسة وهو الإيمان بالرسل ﴿ **لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ** ﴾، إذ يعني ذلك أن الإيمان الحق يقتضي أن نؤمن بكل الرسل، كما لو أننا عشنا معهم وعاصرناهم واتبعناهم، وبمعنى آخر « لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعل اليهود و النصارى بل نؤمن بجميع رُسُلِ الله دون تفريق » (١).

فهذا النص يمكن ـ اعتمادا عليه ـ أن نستثني من الإيمان حتى أهل الكتاب، وهم مجتمعون يمثلون أكبر نسبة دينية فوق الأرض في عصرنا الحديث، هذا فضلا عن الشعوب التي لا تزال مشكلتها العقدية خارج الكتب السماوية كما الحال بالنسبة للبوذية والهندوكية وغيرها من العقائد الوضعية التي لا تؤمن لا برسول الله محمد ﷺ ولا بغيره من الرسل.

ومن هنا يتبين لنا كيف يمثل المؤمنون نسبة قليلة في العالم لا تتجاوز في أحسن الأحوال مليارا واحدا من مجموع ستة ملايير أو يزيد، وسنلاحظ أن هناك حديثا للرسول ﷺ يشير إلى أنه يطمع أن يكون المسلمون ثلث (١ / ٣) أهل

(١) صفوة التفاسير ١ / ١٨٠

الجنة أو شطر أهل الجنة [1]،ومنه نفهم كذلك معنى قوله ﷺ « إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو الرقمة في ذراع الحمار » وقوله « مأأنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة، وإن معكم لخليقتين ما كانتا في شيء قط إلا كثرتاه يأجوج وما جوج ومن هلك من كفرة الجن والإنس »[2] إذ أن ذلك كناية عن الأقلية المؤمنة حقا وسط الأكثرية من الغوغاء الضالة، ولكن معرفة المشكلة على وجهها الصحيح يتوقف على معرفة حقيقة يأجوج ومأجوج، فهل هم البوذيون؟ والهندوس؟ ثم مامعنى « وإن معكم لخليقتين. . . » هل ستتوبان وتكونان مما يكثّر صف المؤمنين؟ بعض التفاسير تفيد نقلا عن ابن مسعود أن يأجوج ومأجوج أمتان كل أمة أربعمائة ألف أمة، كل أمة لايعلم عددها إلا الله، وهم ثلاثة أصناف، صنف منهم أمثال الأرز وصنف عرضه وطوله سواء نحوا من الذراع وصنف يفترش أذنه ويلتحف الأخرى[3] ، وقيل هم بنو قنطراء عراض الوجوه صغار الأعين يتفرق أهلها ثلاث فرق فرقة يأخذون بأذناب البقر وهلكوا، وفرقة يأخذون لأنفسهم وكفروا، وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء [4]، وقال الطبري ليس لله خلق ينمو نماءهم سيملؤون الأرض ويفسدون فيها يتسافدون حيث التقوا تسافد البهائم [5].

الثاني : قول صاحب فتح الباري وهو بصدد شرح حديث الرسول ﷺ بشأن الإيمان : لا يطلق إلا على من صدق بجميع ما ذكر، وقد اكتفى الفقهاء بإطلاق الإيمان على من آمن بالله ورسوله ولا اختلاف، لأن الإيمان برسول الله، المراد به الإيمان بوجوده وبما جاء به عن ربه .... وجميع ما ذكر تحت ذلك »[6].

فقد حصر شارح الحديث الإيمان في من صدق بجميع ما ذكر وهو : الإيمان

---

(١) القرطبي : مختصر التذكرة القرطبية ص ٤٥ – المطبعة الخيرية المصرية

(٢) الطبري : جامع البيان ج ١٧ص ١١٢ دار الفكر بيروت

(٣) تفسير القرطبي : ١١ /٥٧ (٤) نفسه : ١١ / ٥٨

(٥) تفسير الطبري١٦ / ١٩ (٦) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ١ /١١٩

بالله ورسله والملائكة والنبيين واليوم الآخر والقضاء خيره وشره ؛ وبذلك يصبح من لم يصدق بهذه العناصر خارجا من دائرة الإيمان، فيخرج الملحدون ثم المشركون وعبدة الأوثان بسبب غياب عنصري الإيمان بالله واليوم الآخر، ويخرج أهل الكتاب بسبب غياب عنصر الإيمان بجميع الرسل وعنصر جميع الكتب السماوية، قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ** ﴾ [هود: ١٧] : «أي ومن يكفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن كما قال تعالى: ﴿ **لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾ [الأنعام: ١٩] ..»(١).

وهكذا نجد نسبة المؤمنين حقًا تنقص شيئا فشيئا حتى تبلغ فعلاً نسبة تمثل « الأقلية » وهذا ما تبينه الآيات التي سنعرض لها الآن بالدراسة والتفسير.

فسورة هود، وهي سورة مكية تعالج قضايا العقيدة بصفة أساسية، تعرض قصص الأنبياء لبيان تاريخ البشرية في مسألة العقيدة والتقوى، وأول قصة فيها تتحدث عن عقيدة قوم سيدنا نوح عليه السلام، وبالضبط عند قول الله تعالى: ﴿ **وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ** ﴾

[هود: ٣٧ – ٤٠]

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢ / ٤٤١

قصة سيدنا نوح عليه السلام نموذج حي لبيان نسبة الأقلية في مجال العقيدة ،بحيث نجد قول الله ﴿ **وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ واضحا في الدلالة على القلة المؤمنة، وقد سبق القول أن القرآن الكريم غني عن المبالغة في مجال الخبر، لأن الواقع الحقيقي يكفي ليدهش كل ذي لب من خلق الله، ومعناه أن « القلة المؤمنة » قلة فعلا، وتمثل نسبة ضعيفة جدا بالمقارنة إلى نسبة « من سبق عليه القول » الذي يشمل الأكثرية التي تضم كما تبين الآيات ...حتى بعض أفراد أسرته، كزوجة نوح عليه السلام وابنه الذي تبين الآيات في سياق القصة نفسها أن سيدنا نوح ناداه ليركب معه فأبى ﴿ **وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ** ﴾

[هود : ٤٣]

فالله حينما أمر نبيه عليه السلام بأن يحمل من كل زوجين اثنين ـ حفاظا على بقاء النوع الحيواني ـ حدد له في ذات الأمر من يستحق الحمل من البشرية، وهم أهله ومن آمن، وهم قلة، أما الباقي فقد سبق عليهم القول بما في ذلك زوجته وابنه كنعان [١].

وقد ذكر بعض المفسرين أن الذين آمنوا معه على الرغم من طول مدة الدعوة ـ التي كانت ألف سنة إلا خمسين عاما – كانوا قليلا ومنهم نساؤهم، فقدقيل اثنين وسبعين نفسا وقيل أقل من ذلك [٢].

ولئن كنا لا نستطيع أن نحدد العدد إذ هو غيب فإن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ يكفي للدلالة على مقصدنا من هذا البحث وهو بيان أن نسبة المؤمنين من البشرية قليل، ثم بيان ما يترتب على ذلك من واجبات على الأقلية تتعلق بضرورة استخدام الحكمة والعلم من أجل تحقيق

---

(١) صفوة التفاسير : ٢/١٥ (٢) نفسه : ٣/١٥

العدل بعد تحقيق الغلبة التي سيتبين في موضع لاحق أنها ليست خاضعة لقانون القوة والكثرة، وإنما هي خاضعة لقانون السنن الكبرى التي يأتي على رأسها العلاقة بين الإيمان والنصر، وإذا كانت قصة نوح قد أوقفتنا على هذه النسبة بدقة متناهية مست عن طريق الاستثناء حتى أسرته وأهله فإنها تصلح نموذجا يقاس عليه أمر البشرية كلها، ذلك لأن حدث الغرق كان بمثابة فناء شامل يمكّن المتأملَ من أن يعرف مصير البشرية متى استخدم نوعا من القياس الذي تؤيده آيات أخرى مر بنا بعضها وسيمر بعضها الآخر في موضعه من هذا البحث .

ثم هناك آية أخرى من سورة ص – وهي مكية أيضا – تبين أن نسبة من يجتمع عندها الإيمان والعمل الصالح قليلة، قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ [ص : ٢٤]

فقول الله تعالى ﴿ **وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ معناه : نسبة الذين تجتمع فيهم خصلتا الإيمان والعمل الصالح قليلة، ويرى الزمخشري أن الحرف « ما » في هذه العبارة « للإيهام وفيه تعجب من قلتهم » (١)، ويذكر القرطبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع رجلا يقول في دعائه : اللهم اجعلني من عبادك القليل فقال له عمر ما هذا الدعاء؟ فقال أردت قول الله عز وجل : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم فقال عمر : كل الناس أفقه منك يا عمر »(٢) .

والشيخ ابن عاشور يرى أن : تذييل الكلام بقوله ﴿ **وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ فيه حث للمتخاصمين المذكورين في الآية ليكونا من الصالحين لما هو متقرر في النفوس من نفاسة كل شيء قليل (٣)، ويستشهد بقوله تعالى ﴿ **قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ** ﴾ [المائدة : ١٠٠] .

---

(١) الكشاف ٣ / ٣٧١، وانظر التحرير والتنوير ١٣ / ٢٣٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ١٧٩ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٣ / ٣٢٦ .

ثم هناك آيتان أخريان تتضمنان فكرة « الأقلية » المؤمنة، تتحدثان عن بني اسرائيل بصفة أساسية، لكنهما تبينان جانبا نفسيا من الجوانب التي تجعل المؤمنين قلة وهما :

١- قول الله تعالى : ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [النساء :٤٦] .

٢- قوله تعالى : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [النساء: ١٥٥]. والآيتان من سورة النساء وهي سورة مدنية تعالج من بين ما تعالج مستويات السلوك التي يتعامل بها أهل الكتاب مع رسالات الله إلى خلقه، وتبين الأولى منهما طبائع الذين هادوا بخصوص التحريف والعصيان والإساءة إلى الرسول ﷺ والطعن في الدين، وتصل في النهاية إلى بيان حكم وهو أنهم ﴿ **لا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ وتكشف عن سبب امتناع تسرب الإيمان إلى قلوبهم وهو « اللعنة » التي لحقتهم بسبب كفرهم.

كما تبين الآية الثانية أنهم قد تسببوا بأفعالهم القبيحة؛ من نقض المواثيق، والكفر بآيات الله، والعمل على قتل الأنبياء ظلما وعدوانا، والادعاء بأن قلوبهم معطلة لا تفهم عن الرسول شيئا بأن جُعل في قلوبهم انغلاق وانطباع فصاروا إلى حالة من ﴿ **لا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ .

ومعنى ذلك أن تلك الأفعال المخالفة للفطرة والشريعة هي التي عطلت قلوبهم عن الفهم ﴿ **لا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ ومعنى هذه العبارة يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين وكلاهما صحيح.

أما الأول فهو أن المقصود: فلا يؤمن مثل هؤلاء إلا قليلا منهم ممن لم

يَصْدُق عليه القول، وعندئذ تصبح العبارة دالة على «الأقلية» المؤمنة من بني إسرائيل، وهم ذلك النفر اليسير الذي آمن منهم برسول الله ﷺ ودخل في الإسلام مثل :عبد الله بن سلام وأصحابه[١] ، قال قطب معنى الآية: فلا يقع منهم الإيمان إلا قليلا ممن لايستحق بفعله أن يطبع الله على قلبه أي أولئك الذين فتحوا قلوبهم للحق واستشرفوه، فهداهم الله إليه ورزقهم إياه وهم قلة قليلة من اليهود كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيه وأسد بن عبيد الله [٢] وقال في موضع آخر : «ولكن واقع الأمر أنهم بسبب كفرهم مطرودون من هداية الله فلا يؤمن منهم إلا القليل، وصدق قول الله فلم يدخل في الإسلام في تاريخه الطويل إلا قليلا من اليهود ممن قسم الله لهم الخير وأراد لهم الهدى باجتهادهم للخير وسعيهم للهدى أما كتلة اليهود فقد ظلت طوال أربعة عشر قرنا حربا على الإسلام والمسلمين» [٣].

وأما المعنى الثاني فهو أن المقصود من قوله تعالى ﴿ **فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ هو أن تسرب الإيمان إلى قلوب هؤلاء المطبوعة قلوبهم «لايحدث إلا قليلا ، أو لايحدث إلا في فترات قليلة ثم يتراجع، وهو إشارة إلى تردد نفوسهم بين الإيمان الذي تهدي إليه الطبائع الصالحة والنفوس النقية، وبين الكفر الذي تمليه عليهم الأطماع والعناد وما إلى ذلك من الأسباب التي سنتحدث فيها بعد قليل، وإلى هذا المعنى أشار الزمخشري بقوله : «فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا ضعيفا ركيكا لا يعبأ به» [٤]، ومثله القرطبي في قوله : «أي إلا إيمانا قليلا لا يستحقون به اسم الإيمان وقيل معناه لا يؤمنون إلا قليلا منهم ، وهذا بعيد لأنه عز وجل قد أخبر عنهم أنه لعنهم بكفرهم»[٥]، وإليه ذهب الصابوني بقوله : «أي أبعدهم الله عن الهدى وعن رحمته بسبب كفرهم السابق فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا ... وهو إيمانهم ببعض الكتب والرسل» [٦].

---

(١) صفوة التفاسير ٣١٧
(٢) في ظلال القرآن ٢ / ٨٠١
(٣) نفسه ٢ / ٦٧٦
(٤) الكشاف ١ / ٥٣١
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١ / ٢٤٤
(٦) الصابوني : صفوة التفاسير ١ / ٢٨٠

والحق أن المعنيين معا، المعنى الذي يشير إلى قلة المؤمنين منهم، والمعنى الذي يشير إلى قلة حصول الإيمان في قلوبهم يؤديان – بالنسبة لغرضنا من البحث – إلى نتيجة واحدة ، وهي أن «الأقلية» فقط هي التي يحصل لها الإيمان، لأن زيادة الإيمان ونقصانه مسألة شاملة لليهود وغير اليهود .

ولعل الآية التي تختلف صياغتها عن الآيتين السابقتين هي آية البقرة من قوله تعالى : ﴿ **أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [البقرة: ٨٧ –٨٨] إذ جاءت صيغة ﴿ **فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾ بتقديم لفظ القلة على الإيمان لتدل على أن حصول الإيمان في قلوب المستكبرين ـ الذين أصيبوا بالغلف والران بسبب كفرهم واللعنة التي لحقت بهم ـ قلما يحدث، فهم «يؤمنون إيمانا قليلا، وهو إيمانهم ببعض الكتب وكفرهم بالبعض الآخر»[1] ، وذهب الزمخشري إلى أن الميم من قوله ﴿ **فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾ مزيدة، وهو إيمانكم ببعض الكتاب ويجوز أن تكون القلة بمعنى العدم»[2]، وهذا مستبعد؛ لأن أسلوب القرآن في مثل هذه الأحوال يستخدم الحقيقة، إذ لا جدوى من المجاز الذي يستهدف المبالغة، والمقام هنا يستغني عنها تماما.

ومنه نستنتج أن من بني إسرائيل القلة فقط هي التي آمنت، وبقية اليهود الذين ـ عندئذ ـ يمثلون الأكثرية قد كفروا، كما بينت الآيات الثلاثة من سورتي النساء والبقرة.

ويمكن أن نضيف هنا تجربة سيدنا لوط إذ حينما جاءت الملائكة لتبشير سيدنا إبراهيم الخليل كانت قد أشارت إلى ضرورة استئصال قومه الذين لم تنفع معهم الدعوة، وتلخص سورة الذاريات المشكلة كما يلي : ﴿ **فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الذاريات: ٣٦]،

---

(١) صفوة التفاسير ١/ ٧٧

(٢) الكشاف ١/ ٢٩٥

بيت واحد من قرية لوط هي «بيت لوط ـ كما ورد في مواضع أخرى ـ فكانوا هم الناجين إلا امرأته كانت من المهلكين»[1] أما بقية البشر فكانوا على الكفر.

فإذا جمعنا هذه النتيجة ـ المتعلقة بأحوال قوم لوط مع تجربة بني إسرائيل كشعب تكررت معه الدعوة إلى الله وجاءهم الرسل مرارا وتكرارا فظلوا على طبعهم، ولم يؤمن منهم بالرسول محمد ﷺ ولا بالنبيئين قبله إلا قليل جدا بالنظر ـ إلى النتيجة التي توصلنا إليها في الآيات السابقة، والتي حيددنا فيها القلة بشكل مطلق تبينت لنا النتيجة النهائية التي تشير إلى أن الفئة المؤمنة من البشرية قليلة جدا ، ومن ثم ناسب أن تكون الإشارة إلى العدد يوم القيامة في سورة الجن بقوله تعالى : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا** ﴾ [الجن :٢٤] ويمكن أن نضيف هنا تجربة سيدنا لوط إذ حينما جاءت الملائكة لتبشير سيدنا إبراهيم الخليل كانت قد أشارت إلى ضرورة استئصال قومه الذين لم تنفع معهم الدعوة، وتلخص سورة الذاريات المشكلة كما يلي : ﴿ **فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الذاريات: ٣٦] ، بيت واحد من قرية لوط هو «بيت لوط ـ كما ورد في مواضع أخرى ـ فكانوا هم الناجين إلا امرأته كانت من المهلكين»[2] .

وهنا تطرح مشكلة أخرى هي مشكلة العلاقة بين الأقلية والغلبة، فهل تكون الغلبة والقهر دائما للأكثرية؟ وهل تعني الأقلية دائما الضعف، ومن ثم الاستكانة؟

من حسن حظ البشرية أن قلة العدد لا تعني الضعف، لأن ميزان القوة والضعف في مثل هذه الأحوال لا يقاس بالكم وإنما يقاس بالقدرة، ولذلك ارتبط التحدي هنا بالنصر ﴿ **مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا** ﴾ فمع قلة العدد يوجد النصر، لأن النصر من عند الله وهو مصدر القوة والقدرة الحقيقية، ولذلك فسر قطب هذه الآية بقوله « وإذا كان المشركون يركنون إلى قوة وإلى عدد، ويقيسون

---

(١) في ظلال القرآن ٢٧ /٣٣٨٣ (٢) في ظلال القرآن ٢٧ /٣٣٨٣

قوتهم إلى قوة محمد ﷺ والمؤمنين القلائل معه فسيعلمون حين يرون ما يوعدون إما في الدنيا وإما في الآخرة من أضعف ناصرا وأقل عددا، وأي الفريقين هو الضعيف المخذول القليل»[1].

ويبين ذلك أكثر قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة: ٢٤٩] وقوله ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، فالآيتان تبينان أن الغلبة قائمة على القوة وليست على الكثرة، والقوة لا تكمن في العدد بقدر ما تكمن في الصبر والفقه.

وقد توقف قطب رحمه الله عند تفسير هذه الظاهرة التي تتحكم في قانون الغلبة قائلا: «فأما تعليل هذا التفاوت فهو تعليل مفاجيء عجيب، ولكنه صادق عميق ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ فما صلة الفقه بالغلبة في ظاهر الأمر؟ ولكنها صلة حقيقية وصلة قوية، إن الفئة المؤمنة إنما تمتاز بأنها تعرف طريقها وتفقه منهجها، وتدرك حقيقة وجودها وحقيقة غايتها ... وكل ذلك فقه يسكب في قلوب العصبة المسلمة النور والثقة والقوة واليقين ويدفع بها إلى الجهاد في سبيل الله في قوة وفي طمأنينة للعاقبة تضاعف القوة ... وهذه النسبة (١٠/١) واحد لعشرة هي الأصل في ميزان القوى بين المؤمنين الذين يفقهون والكافرين الذين لا يفقهون، وحتى في أضعف حالات المسلمين الصابرين فإن هذه النسبة هي واحد لإثنين (٢/١)»[2].

أقول إن الغلبة لا تقاس بالكم وإنما تقاس بالقوة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والقوة مصدرها الإعداد المادي والإعداد الروحي، ومن الواضح أن الإعداد الروحي هو الذي يرفع درجة القوة، ولذلك يرتبط مفعول

---

(١) في ظلال القرآن ٢٩/٣٧٣٧

(٢) في ظلال القرآن ١٠/١٥٤٩-١٥٥٠

الغلبة دائما بالصبر والتقوى « الغلبة للأتقى فإن لم يكن بين المتغالبين أتقى فللأقوى » أي للأقوى ماديا .

ولا شك أن تاريخ البشرية، ولا سيما تاريخ الإسلام في عهده الأول يكشف عن سر الغلبة الحقيقي في غزوة بدر، وفي غيرها من فتوحات المسلمين الكثيرة .

ومن كل ذلك يتبين لنا أن الأقلية لا تعني بأي حال من الأحوال الضعف الذي ينذر بالانهزام، وإنما على العكس من ذلك يشعر بالقوة ويبشر بالانتصار .

ولكن مع ذلك يبقى التساؤل المطروح هو : ما سبب قلة المؤمنين وكثرة الكافرين في جميع الأعصر ومع كل الأنبياء والرسل إلا قوم يونس ثم عهد الرسول ﷺ في ما بعد الفتح؟

أسباب قلة المؤمنين : يرد ابن عاشور رحمه الله سبب قلة المؤمنين وكثرة الكافرين إلى العوامل النفسية فقال بصدد تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ : « والسبب في ذلك من جانب الحكمة أن الدواعي إلى لذات الدنيا كثيرة والمشي مع الهوى محبوب ومجاهدة النفس عزيزة الوقوع ، فالإنسان محفوف بجواذب السيئات، وأما دواعي الحق والكمال فهي الدين والحكمة، وفي أسباب الكمال إعراض عن محركات الشهوات، وهو إعراض عسير لا يسلكه إلا من سما بدينه وهمته إلى الشرف النفساني وأعرض عن الداعي الشهواني، فذلك هو العلة في هذا الحكم بالقلة » (١) .

ورد سيد قطب قلة إيمان اليهود إلى عوامل نفسية وأخلاقية فقال : « لو كان الإيمان بالبينة أو بالأسباب الظاهرة لآمنت يهود أول من آمن ، ولكن اليهود كانت لها مصالح ومطامع وكانت لها أحقاد وعناد، وكانت هي بطبعها منحرفة صلبة الرقبة كما تعبر عنهم التوراة بأنهم شعب صلب الرقبة، ومن ثم لم تؤمن »(٢) .

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٣٦

(٢) في ظلال القرآن ٥ / ٦٧٧

والحق أن العوامل التي ذكرها كل من ابن عاشور وقطب مهمة جدا في تحديد بعض الأسباب التي جعلت الجنس البشري يكثر في مجال الكفر ويقل في مجال الإيمان، إذ النفس ميالة إلى اتباع الشهوات بطبعها ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾ [يوسف : ٥٣]، ولكن الحركة النفسية ليست هي المتحكمة في مسالة الإيمان والكفر بشكل مباشر، وإنما الذي يتحكم في العقيدة بشكل مباشر هو العقل، غير أن النفس بجريانها على فعل المنكرات تؤثر في القلب والعقل وتؤدي بهما إلى العناد المورِّث لحالة الكفر، وإذا كانت دواعي الحق والكمال هي الدين والحكمة ، كما قال ابن عاشور، فإن هذين يتأسسان بالعقل وهداية الله، ولذلك عقبت الآية السابقة بقوله : ﴿ **إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾.

وقد نستطيع أن نفهم من قول الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** ﴾ [طه : ١١٥]، أن سيدنا آدم كان قد فقد أمام مغريات الشيطان قوة التذكر فنسي حتى أوشك أن يقع في حبائل الشيطان الذي ليس له على الإنسان أي سلطان كما بينا سابقا لولا أن العصمة منعته فلم يقع له ذلك العزم على فعل السوء الذي يقع لغير المعصومين من البشر، والتجربة التي مر بها سيدنا آدم « تمثل المحظور الذي لا بد منه لتربية الإرادة وتأكيد الشخصية والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذي يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها، وهذا هو المقياس الذي لايخطئ في قياس الرقي البشري، فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلى في سلم الرقي البشري ... من أجل ذلك شاءت العناية الإلهية التي ترعى هذا الكائن الإنساني أن تعده لخلافة الأرض باختبار إرادته وتنبيه قوة المقاومة فيه، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب التي يزينها الشيطان وإرادته وعهده للرحمن، وهاهي ذي التجربة الأولى تعلن نتيجتها الأولى : ﴿ **فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** ﴾ »[1] .

---

(١) في ظلال القرآن ١٦ / ٢٣٥٤ .

ويمكن أن نضيف إلى السببين السابقين سببا ثالثا وهو البغي والكبر، ذلك ما تفيده الآية: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [البقرة: ٩٠].

وخلاصة القول: إن الآيات التي عرضنا لها في هذا المبحث كانت تتعلق بنسبة المؤمنين إلى الكافرين، وقد وجدنا آية سورة هود تلخص موقف وتجربة سيدنا نوح عليه السلام وتخلص إلى أنه ﴿ مَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ كما أن آية سورة ص قد بينت من خلال تجربة سيدنا داوود أن الذين يستطيعون من البشر أن يجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ قَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ وعرفنا أن الصيغة هنا تفيد التعجب، كما تجلى لنا من خلال الوقوف عند آيتي سورة النساء وآية سورة البقرة أن تجربة سيدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل من قبل، وتجربة سيدنا محمد ﷺ معهم في المدينة لم تثمر إلا النتيجة نفسها فكانت الصيغة الدالة على الأقلية هي قوله تعالى: ﴿ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ وقوله: ﴿ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

وهكذا تتجلى لنا الصورة واضحة فندرك أن نسبة المؤمنين هي الأقلية والسبب في ذلك يعود إلى أن الناس الذين يتمكنون من ضبط نفوسهم أمام غوايات الشيطان قليلون، وأن الذين يمكنهم أن يلتزموا بداعي الحق والخير من دين وحكمة وعزم قليلون في مجال العقيدة على مستوى الإيمان، وندرك أن قانون الغلبة لايخضع لمبدأ الكثرة والقلة وإنما يخضع لمبدأ الإيمان والصبر.

والآن سنمضي إلى بيان جانب آخر من جوانب الأقلية في مجال العقيدة وهو جانب الشكر الذي يعد الوجه الآخر لكفران النعمة الذي سبق الحديث فيه في الفصل السابق.

* * *